الفصل الثانى
تاريخ المذاهب التطورية[1]

إنّ مذهب التّطور بالنشوء والارتقاء هو مذهب قديم ترجع جذوره إلى آلاف السنين، فقد ظهر أثره فى أقوال علماء بابل وأشور ومصر والإغريق، وقد أبدى بعض فلاسفة اليونان آراء يمكن وصفها بأنها تطورية، إلا أن أى من نظرياتهم لم تُقبل إذ كانت نشازاً بين الأصوات المنادية للإيمان وذلك نظراً لأنّ الإنسان مفطور على التدين الذى هو إحدى غرائزه الفطرية الرئيسية. وعلى سبيل المثال فقد تطرق من الفلاسفة اليونان لموضوع التّطور" اناكسمندر *Anaximander* " المولود سنة " *610* ق. م. " قائلاً: (أما الإنسان فظهر بعد الحيوانات كلها، ولم يخلُ من التقلبات التى ظهرت عليه، فخلق أول الأمر شنيع الصورة ناقص التركيب، وأخذ يتقلب إلى أن حصل على صورته الحاضرة)[2]

وفكرة التّطور هى فكرة مصاحبة لفكرة الخلق التلقائى أو التّولد التلقائى أو التولد الذّاتي. *(Spontaneous generation)* التى هى إحدى النّظريات القديمة التى وضعت قديما لتفسير أصل نشأت الكائنات الحيّة وتقول بأن تلك الكائنات قد نشأت من تفاعل بين مواد غير حيّة. ويعود تاريخ جذور الاعتقاد بالخلق التلقائى إلى العصور الغابرة، فأرسطو[3] أشهر الفلاسفة الإغريق كان يؤمن بالخلق التلقائي، (فقد لاحظ أن صغار أنواع بعض الأسماك ظهرت فى برك كانت مياهها قد جفّت تماما، فاعتقد

(*1*) فى تاريخ المذاهب التّطورية، وخاصة القديم منها، يمكن الاستزادة والإسهاب بالرجوع إلى المصادر التالية: من الإغريق إلى داروين - أوزبورن * مقدمة إسماعيل مظهر على أصل الأنواع لداروين * خلق لا تطور - د. إحسان حقى * دائرة المعارف العربية للبستاني.

(*2*) دائرة المعارف العربية للبستاني.

(*3*) أرسطو Aristotle (384 - 322 ق.) هو الفيلسوف الإغريقى الشهير.

أن صـغار تلـك الأسـماك تنشـأ مـن قطـرات النّـدى المتسـاقطة علـى أوراق

الشّجر، وينشأ بعض آخر منها من العشب الأخضر والعشب الجاف أو من شعر الحيوانات أو من اللحم المتعفن أو من النفايات)[1]

إنّ مثل تلك المعتقدات قد استندت على ملاحظات عابرة وغير دقيقة، إلا أنه نظرا لمنزلة أرسطو بين علماء العصور المظلمة كعالم ومعلم فقد ظلّت تعاليمه ونتاج أفكاره تسود خلال عهود العصور المظلمة ثمّ لعدة قرون بعد ما يسمى بعصر النّهضة. لقد ظلّ العلماء يتعلمون وينقلون عن أرسطو أكثر مما يحصلون عليه من تجاربهم واستنتاجاتهم العقلية، فقد كانت الملاحظة المباشرة والتجارب الخاصة وإعمال العقول فى التّفكر من الموجودات النّادرة فى تلك العصور، إذ كان السائد بينهم الانبهار والنّقل بلا تدبر عمن كان فى نظرهم من المشاهير وكمثال عليه ننقل ما كتبه العالم فان هيلمونت *Van Helmont* فى كتاب نُشر لـه عام *1652* متأثراً بمقولة أرسطو الآنفة الذكر: (إنك إذا وضعت بعضاً من حبوب الحنطة مع قميص قذر فى وعاء، فإنّ فئراناً تنشأ من تفاعل حبوب القمح مع القذر العالق بالقميص)[2]

كما أن الاعتقاد كان سائدا عن نشأة يرقات الحشرات فى اللحم المتعفن، مما أدى بالتالى إلى الاعتقاد بالخلق التلقائي، حيث أتى بعد ذلك من أثبت بالدليل فساد تلك النّرهات، وكان منهم الطبيب الإيطالى "فرانسيسكو ريدي *Redi .F*" الذى بدت لـه تلك المعتقدات غير مقبولة، فقرر أن يختبر

(*1*) عن كتاب "البيولوجيا" د. عدنان بدران وآخرين - طباعة وزارة التربية والتعليم/عمان. - وطباعة الضفة الغربية.

(*2*) عن كتاب "البيولوجيا - علم الحياة" د. عدنان بدران وآخرين، طباعة ومقرر وزارة التربية والتعليم - عمان. الصفحات (92 - 93)

الأمر بنفسه، فقام بسلسلة من التجارب على لحوم وأسماك وحيات ميتة داخل دوارق زجاجية مكشوفة وأخرى مغطاة، وبعد إخضاعها لعدة تجارب خرج بنتائج تجاربه التى نشرها، ومفادها: **(إنه بعد أن نشأت الحيوانات والنباتات الأولى على أرضنا فإن جميع الكائنات الأخرى نشأت عن طريق التّكاثر، ولم يعد هناك خلق تلقائي)**[1] إلا أن ريدى لم يتطرق إلى أصل النشأة الأولى للكائنات كما يوحى بذلك ما نشره.

أما العالم البيولوجى "لويس باستور *Louis Pasteur* " (*1822 - 1859*) وفى أثناء تجاربه وبحوثه المنصبة على محاولة دراسة عملية التخمر وعلاقة ذلك بالبكتيريا وتكاثرها بغرض استنباط طريقة لمنع الحليب وغيره من السوائل من التّعرض للفساد، خرج بإثبات قاطع بفساد مقولة الخلق التلقائى مثبتا أن كل المخلوقات بلا استثناء قد وُجدت بطريقة خلق مباشر ومتقصد، ونتيجة ذلك فقد قام بالدعوة إلى الإيمان بوجود خالق خلق الموجودات جميعا من العدم كما وسنّ قوانين التكاثر والتناسل وألزم المخلوقات به. [2]

لقد أصبح تأييد نظرية الخلق التلقائى محصور فى قلة قليلة من النّاس، إذ أصبح من الثابت غير المطعون به أن كل النباتات والحيوانات لا تنشأ إلا بطريقة واحدة هى التّناسل والتكاثر الذى هو السّنة الوحيدة للنشوء. وفى القرون الوسطى وجدت كتابات فى "علم الحيوان" احتوى بعضها على وصفات لإبداع مخلوقات من الجماد مثل الذباب والنمل وحتى الفئران، كما أن كثير من الناس وبعض علماء البيولوجيا كانوا يعتقدون أن نوعا من أنواع الأوز ينشأ من حيوان قشرى ذى صدفتين. [3] كما كان يشاع فى كثير

(*1*) المصدر السابق - الصفحات (95 - 97)
(*2*) المصدر السابق - ارجع إلى الصفحات (90 - 101).
(*3*) المصدر السابق.

من بلاد العالم عن وجود شجرة تنتج خرافا. [1] ويحاول مؤيدى فكرة التّطور المادى الاستناد إلى ما جاء فى "رسائل إخوان الصفا" حيث جاء فى إحدى رسائلهم:

(... وأمّا النخل فهو آخر مرتبة الحيوان مما يلى الحيوانية، وذلك أن النخل نبات حيوانى لأن بعض أحواله وأفعاله مباين لأحوال الحيوان وإن كان جسمه نباتا)[2]

ويستطردون فى نفس الرّسالة:

(... وفى النبات نوع آخر فعله أيضا فعل النّفس الحيوانية وإن كان جسمه نباتيا وهو " الأكشون " وذلك أن هذا النّوع فى النّبات ليس له أصل ثابت فى الأرض كما يكون لسائر النبات وليس له أوراق كأوراقها، بل يلتف على الأشجار والزروع والبقول والحشائش ويمتص من رطوبتها، ويتغذى كما يفعل الدود)[3]

وهم يستدلون بذلك على أن المشابهة بين حالات فى النبات وحالات فى الحيوان قد يجوز اعتبارها خطوة تخطوها الصّور الحيّة فى سبيل دور انقلابى من النشوء والتّطور تتحول به صور الحيوان والنبات. ويستدل التطوريين العرب من رسائل إخوان الصفا أنهم كانوا من المنادين بنظرية النشوء والتطور لما توحى به الفقرة التالية من شرح للانقلاب النشوئى:

(... إن أدنى الحيوان وأنقصه هو الذى ليس له إلا حاسّة واحدة وهو الحلزون، وهو دودة فى جوف أنبوبة نبتت فى تلك الصخور التى تكون فى سواحل البحار وشطوط الأنهار وليس لها سمع ولا بصر ولا شم ولا

---

(1) المصدر السابق.
(2) رسائل إخوان الصفا - الرسالة العاشرة - طبعة بومباي. مجلد (4) صفحة (282) وما بعدها.
(3) المصدر السابق.

ذوق إلا اللمس فحسب ... لأن الحكمة الإلهية لم تعط الحيوان عضو لا يحتاج إليه فى وقتِ جَرِّ المنفعة أو دفع المضرّة ... فهذا النوع حيوانى نباتي، لأنه ينبت كما ينبت بعض النبات ومن أجل أنه ليس له إلا حاسة واحدة فهو أنقص عن الحيوان رتبة، وتلك الحاسّة هى التى يشاركه النّبات فيها وذلك أن النبات لم حسُ اللمس فحسب.)[1]

ومن تحليلهم لتلك العبارة خلصوا إلى استنتاجات لها فى نظرهم الشّأن الأكبر والمهم فى مذاهب التكوين والنّشوء، خاصّة وأن علماء التّطور يذكرون فى الحلزون فقدانه كلّ الحواس عدى حاسّة اللمس التى يشترك بها كلّ من الحيوان والنبات حقائق يثبتها علم الحيوان والتاريخ الطبيعى وهو من استدلالاتهم على اشتراك بعض الحيوان والنبات فى بعض الصّفات العامة ومؤيداً لما ورد فى الفصل الرابع من كتاب داروين "أصل الأنواع" فى موضوع "الانتخاب الطبيعي"[2] فى حين أن إخوان الصّفا يسمون تلك الظاهرة كما ورد فى النّص السابق " حكمة إلهية "وداروين يطلق عليها "انتخاباً طبيعياً".

ويستندون كذلك إلى أقوال وردت فى كتب " ابن مسكوية "[3] وهى " الفوز الأصغر" و" تهذيب الأخلاق ". كما يأولون بعض ما ورد فى " مقدمة ابن خلدون " بتأويلات يذهبون بها إلى أن كلا الكاتبين كانا ممن حمل فكرة " النشوء والارتقاء " ودعى لها، كما يذهبون فى ذلك نفس المذهب فى استعرضهم لكتاب الجاحظ "الحيوان"، أمـّا " أبو على أحمد بن محمد بن مسكويه الخازن " المتوفى عام *421* هـ فيقول فى كتابه" الفوز

(*1*) المصدر السابق.

(*2*) داروين - أصل الأنواع - ترجمة إسماعيل مظهر - الفصل الرابع " الانتخاب الطبيعى ". الصفحات (213 - 280) طباعة مكتبة النهضة - بيروت وبغداد. ويسمى فيما بعد **" المرجع ".**

(*3*) هو العلامة: أبى على أحمد بن محمد بن مسكويه الخازن المتوفى سنة 421 هجرية.

الأصغر ":

(إنّ أول أثر ظهر فى عالمنا هذا نحو المركز بعد امتزاج العناصر الأولى أثر حركة النّفس فى النبات، وذلك أنه تميز عن الجماد بالحركة والاغتذاء وللنبات فى قبول الأثر غرضاً كبيراً .... إن مرتبة النبات الأولى فى قبول هذا الأثر الشريف هو لما نجم من الأرض ولم يحتج إلى بذور ولم يحفظ نوعه ببذر كأنواع الحشائش، وذلك أنه فى أفق الجماد، والفرق بينهما هو هذا القدر اليسير من الحركة الضعيفة فى قبول أثر النّفس).

والنباتات المقصودة فى هذا القول هى "الفطريات" أى النباتات التى تتكاثر بانقسام الخلايا الجرثومية التى يقول فيها علماء النبات فى عصرنا هذا أنها قسم عظيم من أقسام العالَم النباتى تحتوى الفطريات والطّحالب وغيرها من النباتات البسيطة التركيب وهى " الثالوسيات " والتى تدعى أيضاً " المشريات والبارضيات *Thallophytic* " وهى كما صنفها علماء النبات شعبة من النباتات تشمل أكثر أشكال الحياة النباتية بدائية وتضم الأشنّة أو الطحالب والفطور التى لاجذور لها ولا سوق ولا أوراق، إذ هى جسم نباتى بسيط غير متخلّق الأعضاء وتتركب من خليّة واحدة أو من جرم من الخلايا المتصلة.

ويستطرد ابن مسكويه قائلاً: (... ولا يزال هذا الأثر يقوى فى نبات آخر يليه فى الشّرف والمرتبة إلى أن يصير له من القوّة فى الحركة بحيث يتفرّع وينبسط ويتشعّب ويحفظ نوعه بالبذور ويظهر فيه أثر الحكمة أكثر مما يظهر فى الأول، ولا يزال هذا المعنى يزداد شىء بعد شىء إلى أن يصير إلى الشّجر الذى له ساق وورق وثمر يحفظ نوعه، وغراس يضعونها بها حسب حاجته إليها، وهذا هو الوسط من المنازل الثلاث) ويقصد بهذا مرتبة الحشائش والأعشاب. ويستطرد الكاتب قائلاً: **(إلا أنّ أول هذه المرتبة متصل بما قبله وواقع فى أفقه، وهوما كان من الشّجر**

على الجبال وفى البرارى المنقطعة وفى الغياض وجزائر البحار ولا يحتـاج إلـى غـرس بـل ينبـت لذاتـه وأن يحفـظ نوعـه بالبـذور، وهـو ثقيـل الحركة بطئ النّشوء)

أمّا المرتبة الثالثة: (ثم يتدرّج فى هذه المرتبة ويقوى الأثر فيه، ويظهر شرفه على ما دونه حتى ينتهى إلى الأشجار الكريمة التى تحتاج إلى عناية من استطابة التّربة إلى استعذاب الماء والهواء لاعتدال مزاجها وإلى صيانة ثمرها كالزيتون والرُمان والسفرجل والتفاح والتين وأشباهها). ومقصد ابن مسكويه بذلك "النباتات كاسيات البذور من مرتبة ذوات الفلقتين" حسب التقسيم الذى يجريه النباتيون الآن. ثم يتدرج بعد ذلك قائلاً: (إذا انتهى إلى ذلك - أى النبات - صار فى الأفق الأعلى من النبات، وصار بحيث إذا زاد قبولـه لهذا الأثر لم يبق لـه من صورة النبات، وقَبِلَ حينئذٍ صورة الحيوان).

بعد استطراد ابن مسكويه فى مراتب النبات يأتى لذكر" النخل " ذاكراً حالات التّشابه التى ذكرها "إخوان الصفا" والتى مَرّ ذكرها إلى أن يصل إلى حركة النبات الانقلابية إلى الحيوان حيث يقول: (إنّ هذه المرتبة الأخيرة من النبات وإن كانت فى شرفه فإنها لأول أفق الحيوان وهى أدنى مرتبة فيه وأخَسها وأول ما يرقى النبات فى منزلته الأخيرة ويتميّز بها عن مرتبته الأولى، هو أن ينقلع من الأرض ولا يحتاج لإثبات عروقه فيها بما يحصل لـه من التّصرف بالحركة الاختيارية، وهذه المرتبة الأولى من الحيوان ضعيفة لضعف أثر الحس فيها، وإنما يظهر فيها بجهة واحدة أعنى حساً واحداً هو الحس العام الذى يقال لـه حس اللمس كما فى الصّدَف وأنواع الحلزون الذى يوجد على شواطئ الأنهار وسواحل البحار).

كان هذا هو وصف لمراتب انتقال النبات من مرتبة إلى أخرى كما يراها "ابن مسكويه" مطابقا لما ذكره دُعاة التّطور والنشوء من نشوء النبات من الجماد ونشوء الحيوان من النبات ونشوء الإنسان من الحيوان،

مستطرداً إلى الإنسان الناشئ من آخر سلسلة البهائم، حيث يقول فى مراتب تدرج الإنسان: (مراتب القرود وأشباهها من الحيوان الذى قارب الإنسان فى خلقة الإنسانية وليس بينها إلا اليسير الذى إذا تجاوزه صار إنساناً). ويوضح تسلسله للرُتب من الحيوانية إلى الإنسانية قائلاً فى كتابه الثانى "تهذيب الأخلاق":

(... ثم يصير من هذه المرتبة[1] إلى مرتبة الحيوان الذى يحاكى الإنسان من تلقاء نفسه من غير تعليم كالقرود وما أشبهها، وتبلغ من ذكائها أن تستكفى من التأديب بأن ترى الإنسان يعمل عملاً فتعمل مثله من غير أن تحوج الإنسان إلى تعب بها ورياضة لها، وهذه غاية أفق الحيوان الذى تجاوزها وَقَبِلَ زيادة يسيره خرج منها عن أفقه وصار فى أفق الإنسان الذى يقبل العقل التمييز والنُطق والآلات التى يستعملها والصّور التى تلائمها، فإذا بلغ هذه المرتبة تحرّك إلى المعارف واشتاق إلى العلوم وحدثت له قوى وملكات ومواهب من الله عز وجل يقتدر بها على الترقى والإمعان فى هذه المرتبة كما كان ذلك فى المراتب الأخرى التى ذكرناها، وأول هذه المراتب من الأفق الإنسانى المتصل بآخر ذلك الأفق الحيواني، مراتب النّاس الذين يسكنون فى أقاصى المعمورة من الأمم التى لا تتميز عن القرود إلا بمرتبة يسيرة، ثم تتزايد فيهم قوة التمييز والفهم إلى أن يصيروا إلى أواسط الأقاليم، فيحدث فيهم الذكاء وسرعة الفهم والقبول للفضائل، وإلى هذا الوضع ينتهى فعل الطبيعة التى وكلها الله عز وجل بالمحسوسات)

هذا بعض ما ورد فى كتب "ابن مسكوية" والتى يستشهد بها دعاة التّطور على قدم مذهبهم، والملاحظ أن ابن مسكويه أيضا وكذلك "إخوان

---

(1) المقصود هنا مرتبة الحيوانات التى فى نظره لم تعط الفهم وقوته إلا النذر اليسير وهى قبل مرتبة القرود التى أعطيت من قوة الفهم أكثر منها.

الصفا" يردون حدوث هذا التطور من المراتب النباتية إلى الحيوانية ومن ثم إلى صورة الإنسان إلى قوانين وسنن فرضها الله تعالى على المخلوقات وألزمها التّطور فى نطاقها، فلا يردون ذلك إلى الصدفة العشوائية ولا إلى الخلق التلقائي.

وأما استشهادهم بأقوال " ابن خلدون " فلما جاء فى كتابه " مقدمة ابن خلدون " وبالتحديد لما ورد فى المقدمة الثالثة منه فى المعتدل من الأقاليم والمنحرف وتأثير الهواء فى ألوان البشر والكثير من أحوالهم، **وهذا نصه:**

(وقد توهم بعض النسابين ممن لا علم لديه بطبائع الكائنات أن السودان وهم ولد حام بن نوح، اختصوا بلون السّواد لدعوة كانت عليه من أبيه ظهر أثرها فى لونه وفيما جعل الله الرّق فى عقبه، وينقلون فى ذلك خرافات من القصص، ودعاء نوح على ابنه حام قد وقع فى التوراة وليس فيه ذكر السّواد، وإنما دعا عليه بأن

يكون ولده عبيدا لولد أخوته لا غير. وفى القول بنسبة السودان إلى حام[1] غفلة عن طبيعة الحر والبرد وأثرهما فى الهواء وبما يتكون فيه من الحيوانات، وذلك أن هذا اللون شمل أهل الإقليم الأول والثانى من مزاج هوائهم للحرارة المتضاعفة فى الجنوب، فإن الشّمس تسامت رؤسهم مرّتين فى كل سنة قريبة إحداهما من الأخرى فتطول المساتمة عامة الفصول، فيكثر الضوء لأجلها ويلح القيظ الشديد وتسود جلودهم لإفراط الحر.)[2]

فيستدلون من ذلك موافقة بين مذهبهم وبين رأى ابن خلدون إذ يتقولون

---

(1) ينسب القلقشندى الشهير بابن غدة فى كتابه " سبائك الذهب فى معرفة قبائل العرب " صفحة (12) إلى حام بن نوح أنه أبو السودان بجميع أجناسهم - الحبشة والنوبة والزنج - ويقول: وكان حام حسن الصورة بهى الوجه فغير الله لونه وألوان ذريته من أجل دعوة أبيه لأنه دعا عليه بتسويد الوجه وسواد ذريته وأن يكون أولاده عبيداً لأولاد سام ويافت .....

(2) مقدمة ابن خلدون - سلسلة كتاب التحرير - طبعة 1376 هـ / 1966 م صفحة (76)

أنه يرى ما يرون من أثر تـأثير الطبيعة فـى الأحيـاء، وهذا مـا ذهـب إليه " لامارك " الذى اعتبر أن العادة تغير من صفات العضـويات بمثل مـا يغيـر الطقـس، وهـذا القـول هـو مـن النظريـات الأوليـة التـى بنـى عليهـا " لامارك " مذهبه فى النشوء.

أما فى المقدمة الرّابعة من كتابه فى أثر الهواء فى أخلاق البشر فيقول: (ولما كان السودان ساكنين فى الإقليم الحـار واستولى الحـر علـى أمـزجتهم وفـى أصـل تكـوينهم كـان فـى أرواحهـم مـن الحـرارة علـى نسـبة أبـدانهم وأقليمهم، فتكون أرواحهم بالقياس إلـى أرواح أهل الإقليم الرابـع أشد حـراً فتكـون أشـد تفشـيا، فتكـون أسـرع فرحـاً وسـروراً وأكثـر انبسـاطا ويجـىء الطيش على أثر هذه. وكذلك يلحق بهم قليلا أهل البلاد البحرية، لمـا كـان هوائهـا متضـاعف الحـرارة بمـا ينعكس عليـه أضـواء بسيط البحـر وأشـعته كانـت حصـتهم من توابـع الحـرارة فـى الفرح والخفـة أكثر من بـلاد التلـول والجبال الباردة)[1]

أما فى مقدمته الخامسة والتى تبحث فى أثر اختلاف أحوال العمران فى الخصب والجوع فيقول: (وتجد مع ذلك هؤلاء الفاقدين للحبوب والأدم من أهل القفار أحسن حالاً فى جسومهم من أهل التلال المنغمسين فـى العيش، فـألوانهم أصـفى وأبـدانهم أنقـى وأشـكالهم أتـم وأحسـن وأخلاقهـم أبعـد عـن الانحراف وأذهانهم أثقب فى المعارف والإدراكات.)[2]

فيقارنون بين هذا وبين أثر التحولات التى تعتمد عليها بعض نظريـات النشوء، زاعمين أنها من أقوى الأسباب فى استحداث الضروب التى تحدث فى الأنواع بمضيها متدرجـة فى قبول تلك الصفـات حـالاً بعد حـال. وأتـى

---

(1) المرجع السابق صفحة (78)
(2) المرجع السابق صفحة (79)

مطابقاً لما يقوله " أندورايت ANDREWNIT " من احتمال أن يكون لتغاير الأغذية أثر فى تغاير الأشكال الظاهرة فى الحيوانات ما جاء فى ختام المقدمة الخامسة حيث يقول: (ومن تأثير الأغذية فى الأبدان ما ذكره أهل الفلاحة وشاهده أهل التجربة أن الدجاج إذا غذيت بالحبوب المطبوخة فى بعر الإبل واتخذ بيضها ثم حضنت عليه جاء الدجاج منها أعظم ما يكون، وقد يستغنون عن تغذيتها وطبخ الحبوب بطرح ذلك البعر مع البيض المحضن فيجيء دجاجها فى غاية العظم، وأمثال ذلك كثير، فادا رأينا هده الآثار من الأغذية فى الأبدان فلا شك أن للجوع أيضاً آثاراً على الأبدان، لأن الضدين على نسبة واحدة فى التأثير وعدمه، فيكون تأثير الجوع فى نقاء الأبدان من الزيادات الفاسدة والرطوبات المختلفة المخلة بالجسم والعقل كما كان الغداء مؤثرا فى وجود دلك الجسم، والله محيط بعلمه.)[1]

أما فى مقدمته السادسة فيقول فى "تفسير حقيقة النبوة": (ثم أنظر إلى عالم التكوين كيف ابتدأ من المعادن ثم النبات ثم الحيوان على هيئة بديعة من التدريج..... آخر أفق المعادن متصل بأول أفق النبات مثل الحشائش وما لا بذر له، وآخر أفق النبات مثل النخل والكرم متّصل بأول أفق الحيوان مثل الحلزون والصدف ولم يوجد لهما إلا قوة اللمس فقط. ومعنى الاتصال فى هذه الكائنات أنّ آخر كل أفق منها مستعدٌ بالاستعداد القريب لأن يصير أول أفق الذى بعده، واتسع عالم الحيوان وتعددت أنواعه، وانتهى فى تدريج التّكوين إلى الإنسان صاحب الفكر والرّوية، ترتفع إليه من عالم القردة[2] الذى اجتمع فيه الحس والإدراك، ولم ينته إلى الروية

---

(1) المرجع السابق صفحة (82)

(2) هكذا وردت فى نسخة " كتاب التحرير ". وفى نسخة د. على عبد الواحد وافي. إلا أنها وردت فى نسخة الطبعة الأميرية صفحة (80) - (**عالم القدرة**).

والفكر بالفعل، وكان ذلك فى أول أفق الإنسان بعده، وهذا غاية شهودنا.)

كان هذا بعض ما ورد فى "مقدمة ابن خلدون" مما يعتبره دعاة التطور غير بعيد عما ذكره داروين فى ملخصه التاريخى الذى وضعه لكتابه. أما "الجاحظ" فقد أورد فى كتابه "الحيوان" مشاهدات يعتبرها باحثوهم من مقومات مذهب النشوء، منها ما قاله فى التلاقح وتزاوج الضروب وإنتاج الأنسال الجديدة، حيث قال فى فصل "باب القول فى الجعلان والخنافس" ما يلي: (والجعل يظل دهراً لا جناح له ثم ينبت له جناحان كالنمل الذى يغبر دهراً لا جناح له ثم ينبت له جناحان وذلك عند هلكته، والدعاميص قد تغبر حيناً بلا أجنحة، ثم تصير فراشاً وبعوضاً، وليس كذلك الجراد والذبان، لأن أجنحتها تنبت على مقدار من العمر ومرور الأيام، وزعم ثمامة عن يحيى بن خالد أن البرغوث قد يستحيل بعوضة، والجعل يحرس النيام فكلما قام منهم قائم فمضى لحاجته تبعه طمعاً فى أنه إنما يريد الغائط.)[1]

ويرجع دعاة فكرة النشوء إلى "القزويني"[2] صاحب كتاب "عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات" حيث يستدلون لتأييد ما يدعون إليه بما جاء فى صفحة (*241*) من كتابه: (فأول مراتب هذه الكائنات تراب وآخرها نفس ملكية طاهرة، فإن المعادن متصلة أولها بالتراب أو الماء وآخرها بالنبات، والنبات متصل

أوله بالمعادن وآخره بالحيوان، والحيوان متصل أوله بالنبات وآخره بالإنسان، والنفوس الإنسانية متصلة أولها بالحيوان وآخرها بالنفوس

(*1*) كتاب " الحيوان " للجاحظ. دار صعب - بيروت. جزء (3) صفحة (591).
(*2*) زكريا بن محمد بن محمود القزوينى (600 - 682".). صاحب كتاب " عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات".

الملكية، والله تعالى أعلم بالصواب.)[1]

أما ما هو نوع هذا الاتصال فالفقرة التى سبقتها فى نفس الموضوع تفسّر بجلاء تام ووضوح أن ما قصده القزوينى لم يكن أبداً كما أولوه وفسروه حيث يقول: (... وأنها متّصلة بعضها ببعض بترتيب عجيب ونظام بديع تعالى صانعها عما يقول الظالمون والجاحدون علواً كبيراً.)[2] وربما يكون ما جاء فى نفس الكتاب بعنوان "فى النبات" ما يكون أوضح فى إبعاد القزوينى عما يصفوه به من الهرطقة والكفر والسّفه حيث يقول:

(النبات متوسط بين المعادن والحيوان، بمعنى خارج عن نقصان الجمادية الصرفة التى للمعادن وغير واصل إلى كامل الحسن والحركة اللتين اختص بهما الحيوان، لكنه يشارك الحيوان فى بعض الأمور لأن البارى تعالى يخلق لكل شىء من الآلات ما يحتاج إليهما فى بقاء ذاته ونوعه، وما زاد على ذلك تكون ثقلاً وكلاً عليه لا يخلفه، ولا حاجة للنبات للحس والحركة بخلاف الحيوان.)[3]

إنّ أشهر وأقدم نظريات النشوء بالتطور الحديثة كانت نظرية العالم الإنجليزى "ايراسموس داروين *Erasmus Darwin*" وهو جد صاحب نظرية التطور الشهيرة والذائعة الصيت "تشارلس داروين *Charles Darwin*"، ثم نظرية "كونت بوفون *Conte De Buffoon*" وكان ملخص النظريتين ما يلي: (إن وجود نباتات أو حيوانات تحت تأثير وسط معين يكسبها صفات جديدة، وهذه الصفة تنتقل إلى نسليهما فتحدث انقلابات هى عوامل التطور.)

(*1*) عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات. "القزويني" طبعة دار الآفاق الجديدة - بيروت. صفحة (241)

(*2*) المصدر السابق. صفحة (241).

(*3*) المصدر السابق. صفحة (281).

ثم تبعهم العالم الطبيعى الفرنسى "جان باتيست لامارك *Jean Baptiste Lamark*" الذى نشر كتاباً فى تأييد نظرية وراثة الصفات المكتسبة مشترطاً وجود ضرورات كوسيلة للتطور. (1)

وبعد ذلك ظهر أستاذ علم الحياة الألمانى "اوغست وايزمن *Augest Weissma*" حيث حاول الوصول إلى نتيجة التطور بطريق الصفات المكتسبة، فحاول تربية فئران بلا ذنب بعد ان قطع أذناب فئراناً قبل تلاقحها.....)(2)

إن العلماء المختصين استنادا لتحقيقاتهم العلمية وبعد إعمالهم عقولهم فى تجاربهم، قد رفضوا وبصورة قاطعة نظرية التحول الوراثى للصفات المكتسبة، وأثبتوا فسادها بالأدلة العلمية، إلا أن تلك النظرية لم تتلاشى تماماً بالرغم من تحول الكثير عنها وقيامهم بنقضها ومهاجمتها، فقد بقى لها أنصار ومؤيدون ودعاة، منهم من حمل النظرية على علاتها، ومنهم من طفق يدعمها بأدلة ومنهم من حاول إدخال التحسينات عليها مع الإبقاء على أصلها.

لقد أثار العالم الكيميائى السويدى "سفانت آرهينوس *Savante Arrthenius*" نظريته أن أصل الحياة قد أتى من الفضاء الخارجى (*permia*nsPa) بطريق إنتقال وحدات شبه جرثومية من كوكب إلى آخر عن طريق الضغط الإشعاعي، وقد نُظر إلى تلك النظرية أنها قد تأثرت بقصص الخيال العلمية وأنه ليس لها أدلة تدعمها، وأنها هرطقة، لذا فلم ترد تلك النظرية فى سياق التسلسل التاريخى للمذاهب التطورية إلا نادراً. (3)

---

(1) *chevalier de Lamark: Jean Batiste De Mont.*

(2) يمكن الرجوع إلى الرد على تلك الطريقة إلى كتاب " علم الحياة " المطبوع سنة *1966* م.
Review text in Biology: Lesser .S Hall .Milltown, Mark, A.

(3) جولدزبى - البيولوجيا. جزء (*1*) صفحة (*10 - 11*)

أما "هيلر *Heller* " (*1772 - 1844*) وهو عالم فرنسى وصاحب النظرية الحاملة لاسمه فتقول نظريته بأن الأنواع المختلفة من الكائنات الحيّة تنشأ استجابة لظروف البيئة فظروف البيئة تتغير باستمرار مما يسبب تغيرات فى الكائنات الحيّة، فإذا كانت التغيرات ملائمة للبيئة فإن الأفراد تعيش وتتكاثر مكونة نوعاً جديداً وإذا كانت التغيرات غير ملائمة فإن أفراد هذا النوع تهلك وتنقرض.)[1]

أما فى روسيا فقد ظهر فيها العالم البيولوجى الروسى "ايفان فلاديميروفيتش ميتشورين *Ivan Vladimirovich Michorin*" (*1855 - 1935*) والذى رفض قانون الوراثة الذى وضعه الراهب "مندل *Mendel* "[2] ووضع مذهباً فى التطور العضوى سمى "الميتشورينية *Michurinism*" نسبة له، وهو مذهب فى التطور العضوى تعتبر شكلاً من أشكال اللاماركية، والذى يقول بأن الصفات المكتسبة تنتقل بالوراثة إلى الذرية. [3] وظهر بعده فى روسيا من أتباع اللاماركية العالم البيولوجى "ترو فيم دينبوفيتش ليسينكو *Trofim Denisovich Lysenko*" (*1898 - 1976*) والذى عمل بتشجيع من ستالين على إنتاج أنماط جديدة من المحاصيل فى فترة شكى الاتحاد السوفييتى خلالها من أزمة خطيرة فى الإنتاج الزراعى (*1927 - 1929*) فوضع مذهبا فى التطور العضوى نُسبَ إليه إذ أطلق عليه اسم "الليسينكورية *Lysenkorism*" وهو مذهب فى التطور العضوى وضعه عام *1930*، ويعتبر امتداداً وتطويراً لِ

(*1*) المصدر السابق. صفحة (*123*).

(*2*) غر يغور جوهان مندل *Gregory Johann Mendel* (*1822 - 1884*) راهب وعالم نبات نمساوي، يعد مؤسس علم الوراثة (*genetics*) أجرى فى حديقة الدير الذى يقيم فيه تجارب على نباتى البازيلا والفول أدت إلى اكتشافه قواعد الوراثة الأساسية والتى يطلق عليها اسم (قوانين مندل) أو (المندلية) (*Mendel's Laws*).

(*3*) موسوعة المورد العربية - المجلد الثانى - صفحة (*1182*).

"الميتشورينية" والمذهب يقوم على إنكار وجود المورثات (*Genes*) والهرمونات النباتية ودور الصبغيات (*Chromosomes*) المتخصص، ويقوم على قاعدة أساسية هـى الوحدة بين المتعضى (*Organism*)

وبيئته، مؤكداً أن جميع أجزاء المتعضى تُسْهم فيما ندعوه الوراثة وأن فى إمكان البيئة أن تتحكم فى هذه الوراثة. (1)

لقد كتب الأستاذ "دوديسـويل *Dowd swell*" فـى كتابـه "آليـة التطـور" المطبوع سنة *1960*: (إن آخر جديد فى النظرية اللاماركية(2) هو ما جرى فـى روسيا سنة *1948* تحت إشراف الأستاذ ليسينكو حيث استبعدت تلك النظريـة من الميدان العلمي، ولكن استبعادها جرى على أسباب عقدية "أيدلوجية" أكثر من كونها علمية)(3) ثم أعقبت مجلة " تايم *Time*" ذاكرة الخبر التالى فى عددها الصادر فى تشرين ثانى سنة *1965* ما يلي: (إن الأستاذ ليسينكو أعفى من منصبه، وأن الشيوعيون أيضاً رفضوا هذه النظريـة علمياً، لأن الوراثـة تحددها "المولـدات" وهذه تبقى ثابتـة خـلال الكـائن الحـى مـدى حياتـه) والمولـدات أو "المضـادات *Antigens*" هـى البروتينيات التى ينتجها الجسم فى حال تسرب الأجسام الغريبة إليه، وتدعى أيضاً "الأجسام المضادة *Antibody* " وهى تتميز بقدرتها على جعل الأجسام الغريبة عديمة الضرر. (4)

إلا أن كلا المذهبين "الميتشورينيـة والليسينكووية" يصنفان ضمن قائمة المدرسة اللاماركية التى يطلقون عليها حديثاً اسم "اللاماركية المُحْدَثَة *Neo*

(*1*) المصدر السابق. صفحة (*1054*).

(*2*) اللاماركية نسبة إلى عالم النبات "لامارك *Lamark*" القائل بالتحول الفجائي، وهو صاحب كتاب (فلسفة الحيوان).

(*3*) *W. H. Dowdesweell: The mechanism of Evolution.*

(*4*) موسوعة المورد العربية. مجلد (*1*) صفحة (*388*).

Lamamrkism" وهى كل تلك النظريات التى نشأت عن اللاماركية فى الشطر الأخير من القرن التاسع عشر والتى تعتمد على التأكيد على أثر البيئة المباشر فى التطور العضوى للحيوانات والنباتات. ومن أبرز دعاة تلك النظرية "الفريد ماتيو

جيبار *Giard*" (*1846 - 1908*) فى فرنسا و "إدوارد دينكر كوب *Cope*" (*1840 - 1897*) فى الولايات المتحدة الأمريكية. (*1*)

****

لقد وضع "هيربرت سبنسر *Herbert Spenser*" الأسس والبراهين المرتكزة عليها قواعد نظرية النشوء والارتقاء فى أواخر القرن التاسع عشر، مؤكداً أن قانون الارتقاء عامة ينحصر فى التغاير من حال التّجانس التركيبى إلى التنافر فيه، وتلك النظرية هى نفس "نظرية داروين" إلا أن النظرية قد نسبت إلى "شارلس روبرت وارنج داروين *Charles Darwin*" المولود سنة *1809* والمتوفى سنة *1882* وأخذت اسمه، فداروين كان أشهر وأجرأ من تكلم بها وكتب عنها، وكان أشهر الكتب التى اشتهرت فى ذلك هو كتابه "أصل الأنواع *The Origin of Species*" الذى ظهر سنة *1859*م.

بعد أن نشر داروين كتابه المذكور، نشر بعده عدة كتب فى التطور والنباتات، وفكر أن يطبق نظريته على الإنسان، فأكب على المعلومات التى استجمعها يرتبها ويجمع بينها، ويستخلص منها النتائج التى قد يستطيع أن يثبت منها أن الإنسان ناشئ من صورة دنيا هى أقرب إلى القردة العليا منها إلى أى صورة من صور الأحياء. وقد فرغ من كتابة فصول كتابه الجديد فى ثلاث سنوات، ونشره فى شباط سنة *1871*م، أى بعد *13* عاماً من نشر كتابه الأول "اصل الأنواع" فكان الكتاب الثانى "نشوء الإنسان *Evolution*

(*1*) المصدر السابق. مجلد (*2*) صفحة (*1025*)

of Man ".

لقد ثـارت عاصـفة هوجـاء حـول الكتـابين، وجـرى معارضـة ونقـض الأفكـار التـى حوتهـا كتـب داروين مـن قبـل علمـاء وبـاحثين، إلا أنـه بعـد داروين والعاصفة التى ثارت حول نظريته نشر" اوزبورن *n*or*Osb* "كتابه المعروف" من الإغريق إلى

داروين *From the Yreeks to Darwin* " شارحاً تأريخ تـدرج الفكر فـى التأمل فى تطور الأشياء، محاولاً البرهنة على خطأ نظرية "الخلق المستقل *Sjecal Creation*"، وإثبـات نظريـة داروين القائلـة بتطـور المخلوقـات (*Evolution*).

إلا أنـه حتـى داروين الـذى اشـتهرت النظريـة باسـمه لـم يكـن أول مـن حاول البحث فى نفس الموضوع، ولم يكن مبتدعاً لنظرية جديدة، فقد سبقه العالم الفرنسى "كونت بوفون*Conte de Buffoon*" الذى كان أول من كتب فى الموضوع بأسلوب علمي، وقد تبعه "لامارك *Lamark* " سنة (*1809*م) أى قبـل ظهـور كتـاب داروين بخمسين سنه، وكـان قد نشـر كتابـه "فلسفة الحيوان" ثم أتبعه كتاب "تأريخ الفقاريات الطبيـعي" فأيد فـى كـلا الكتـابين نظرية أن الأنواع جميعاً - بما فيها الإنسـان - ناشـئة من أنواع أخر، وركّز فى بحوثه أن ضروب التحول فى العالم العضوى وغيره ناشـئ عن سـنن طبيعية صرفة، وتـوالى بعد ذلك العلمـاء والبـاحثين متجهين نفـس الاتجـاه، وكان أشـهرهم قبل ظهور داروين:

01	**جفـــــــروى سانتيلير**	**1795**	**A. G. Sant Lieer**
02	**د. ويلز**	**1813**	**D. Wills**
03	**وليم هيربرت**	**1822**	**W. Heirbert**

04	جرانت	1826	Grant
05	باتريك ماتيو	1831	Partik Matio
06	فـــون بـــوخ ليوبولد	1836	V. B. Leopold
07	فون باير	1837	Von Baer
08	دومـــــاليوس دالوى	1846	Domallius Daliwah
09	رتشارد أوين	1849	Richard Owen
10	هيربـــــــرت سبينسر	1858	Heirbert Spinser
11	هوكر	1859	Sir Josef Dalton Hooker

حتى ظهر داروين بكتابيه: الأول سنة *1859*، والثانى سنة *1871*، فكان ظهور داروين ونظريته أكثر ما شاع وأجرأه، إذ حاول إثبات فكرة التطور وإخراجها إلى حيز النظريات، **لـذا** فقد نسبت النظرية لـه واشتهرت باسمه.

****

لـم يكـن داروين ونظريتـه آخـر المطـاف، بـل لقـد حمـل الفكـرة فلاسـفة وعلماء وأدباء كثيرون بعده وروّجوا لها فـى كتبهم وفـى محاضـراتهم وفـى جميع وسائل الإعلام، كان منهم " البروفيسـور ماندير *Maunder .E .A* " الذى يعلق على نظرية التطور العضوى قائلاً:

(لقد ثبت صدق هذه النظرية حتى أننا نستطيع أن نعتبرها أقرب شيء إلى الحقيقة)[1] **أما العالم التطورى الشهير " جورج سمبسون *Gaylord Simpson*" فيقول: (إن نظرية النشوء والارتقاء حقيقة ثابتة أخيراً وكلياً، وليست بقياس أو فرض بديل صيغ للبحث العلمي)**[2]

أما محرر "دائرة المعارف البريطانية" فيعتقد أن نظرية الارتقاء فى الحيوان حقيقة، وأن هذه النظرية قد حظيت بموافقة عامة بين العلماء والمثقفين بعد داروين. [3]

أما " ر. س. ليل *R. S. Lille* " فيدلى برأيه قائلاً: (ظلّت نظرية الارتقاء تحصل على تأييد متزايد يوما بعد يوم بعد داروين حتى أنه لم يبق شك لدى المفكرين والعلماء فى أن هذه هى الوسيلة المنطقية الوحيدة التى تستطيع أن تفسّر عملية الخلق وتشرحها)[4]

ولقد بلغ بِ "سير آرثر كيت" الذى يعتبر محامياً متحمساً للنظرية وأحد أبرز الشخصيات الداعية لها، أنه لم يعتبرها مجرد ملاحظة أو نظرية أو تسلسل منطقي، بل لقد اعتبرها عقيدة حيث يقول: (إن نظرية الارتقاء هى عقيدة أساسية فى المذهب العقلي)[5] وهو إذ يفسر إيمانه بتلك العقيدة يعترف بأنها عقيدة بلا أدلة ولا براهين!!! ملمحاً إلى الأسباب الخفية الدّافعة لاعتناقها: (إن نظرية النشوء والارتقاء لا زالت بدون براهين

---

(1) الإسلام يتحدى، صفحة (49)، نقلاً عن: *Ibid , P: 113*
(2) المصدر السابق، نقلا عن: *Meaning of Evolution. p. 127.*
(3) المصدر السابق، نقلا عن: دائرة المعارف البريطانية (*1958*).
(4) المصدر السابق، نقلا عن: *Organic Evolution. 15*
(5) المصدر السابق، نقلا عن: *Revolt against reason P: 112*

وستظل كذلك، والسبب الوحيد الذى فى أننا نؤمن بها هو آن البديل الوحيد الممكن لها هو الإيمان بالخلق المباشر، وهذا غير وارد على الإطلاق)[1]

أما الداروينى الملحد " جوليان هُكسلى *Huxley .J* " فيقول عن النظرية:

(هكذا يضع علم الحياة الإنسان فى مركز مماثل لما أنعم عليه كسيد للمخلوقات كما تقول الأديان..... من المسلم به أن الإنسان فى الوقت الحاضر سيد المخلوقات ولكن قد تحل محله القطة أو الفأر)[2] وهو يزعم بأن الإنسان قد اختلق فكرة "الله" إبان عصر عجزه وجهله، أما الآن فقد تعلم وسيطر على الطبيعة بنفسه ولم يعد بحاجة إليه، فهو العابد والمعبود فى آن واحد، إلى أن يقول: (بعد نظرية داروين لم يعد الإنسان يستطيع تجنب اعتبار نفسه حيواناً)[3]

أما "د. هـ. سكوت" المشهور كداروينى شديد التّعصب فيقول: (إن نظرية النشوء جاءت لتبقى، ولايمكن أن نتخلى عنها ولو أصبحت عملاً من أعمال الاعتقاد)[4]

أما الفيلسوف الملحد الشهير "برتراند راسل *Bertrand Russell* " فيشيد بالأثر الداروينى مركزاً على الناحية الميكانيكية فى النظرية، حيث يقول: (إنّ الذى فعله جاليلاى ونيوتن من أجل الفلك فعله داروين من أجل علم الحياة)[5]

****

(1) الموسوعة الميسرة فى الأديان والمذاهب المعاصرة. صفحة (211)
(2) المصدر السابق. صفحة (211)
(3) المصدر السابق. صفحة (212)
(4) المصدر السابق. صفحة (212)
(5) المصدر السابق. صفحة (212)

لقد سُـخِرَ لنشـر نظريـات التطـور عمومـاً، ونظريـــة داروين تحديداً، معظم وســائل الإعلام العالمية، ونُشر حولها العديد من المقالات والأبحـاث فـى الجرائـد والمجـلات والكتـب والموســوعات، وقـام بتدريسـها أسـاتذة المدارس والمعاهد والجامعات، ورَوَجَت لها الجرائد والمجلات والإذاعـات وكل وسـائل الإعلام، وتبنى شـرحها كثير من الأساتذة والعلمـاء فـى شـرق العالم وغربه على السواء، فانتشرت فـى أوروبـا وانتقلت بعدها إلـى جميع بقاع العالم، وما زالت تلك النظرية تُدَرَسَ فى كثير من الجامعـات العالميـة، كما أنها قد وَجَدَت أتباعاً لها فـى العـالم الإســلامى من الذين تربـوا وتثقفوا تربية وثقافة غربية حيث درسوا فى جامعات أوروبية وأمريكية، وبالأخص "جامعة السوربون" الفرنسية.